إنما أشكو

بثِّي وحُزني إلى اللّه

كتبه

ياسِر بُرهامي

عفا اللهُ عنه

دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية

دار الفتح الإسلامي
بمصطفى كامل

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع ٢٤٢٢٦ / ٢٠٠٦

دار الخلفاء الراشدين
ج.م.ع - الإسكندرية - حي الرمل
ش منشية الزهراء - أبو سليمان
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٥٠١٣١٥١/٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

الشركة الفنية للطباعة
ت : ٧٧٧١٠٣٩ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ؛ نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

فمواقف الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - نقاط ضياء منيرة ، تُبين للمؤمن عبر الزمان والمكان حقيقة العبودية ، وتعرفه بحكمة الله ﷻ ، وترشده إلى التعامل مع الواقع الذي يعيش فيه ، الواقع المليء بأنواع الآلام والأحزان ، كما هو مليء بأنواع الفرح والسرور ، ويعيش الإنسان بين هذا وذاك في حياته كلها من أول وجوده فيها إلى أن يرحل بين لذة وألم وبين فرح وحزن والله ﷻ يداول الأيام بين الناس ، لكن مواقف الأنبياء تبين للمؤمن والمؤمنة ما يفعل حينما يواجه شيئًا من ذلك.

ومعرفة الأسماء والصفات هي الركن الركين في إيمان المؤمن ، والمؤمن دائمًا يفزع إلى الله ويلجأ إليه لأنه يعلم

حكمته وحمده وملكه وقدرته وعظمته ، لا يعلمها مجرد كلمات تقال ، ولكنه يشعر بها ويشهد آثارها كالشمس في وضح النهار ، ولكن أكثر الناس تعمى قلوبهم فلا يشهدونها ، ولو تأملت أي صفة من صفات الله ، وتدبرت ما حولك من الكون ؛ لعلمت يقينًا أن آثارها أوضح من شمس النهار.

فمثلاً صفة الرحمة من صفات الله ﷻ فهو الرحمن الرحيم ، وهما اسمان من أسمائه الحسنى ، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وكتب سبحانه على نفسه الرحمة ، ولو تأملنا ما في قلوب الخلق من رحمات ينشئها الله ﷻ من العدم ، كرحمة الأب لبنيه ، والأم لأولادها ، ولم يكن بهم قبل ذلك فكر ، ولا يخطر لهم على بالهم وجود هؤلاء الأولاد ، ثم يخلق الأولاد ويخلق في قلب الأب والأم من الرحمة ما يدلك على اتصاف الله ﷻ بهذه الصفة أعظم مما يتراحم به الخلائق فيما بينهم ، وانظر إلى آثار رحمته عباده بالأرزاق التي أعطاهم إياها مما هيأ لهم من أسباب المعاش واستمرار الحياة ، ومما هيأ لهم من نزول المطر وجريان الأنهار ونبت الزرع والثمار ، واستمرار أنواع اللذات لهم ، فانظر إلى آثار رحمته الواسعة

التي وسعت كل شيء، فما من مخلوق إلا وله منها نصيب، حتى الكافر يناله من هذا النوع من الرحمة نصيب.

ثم تدبر ما في قلوب المؤمنين من حبه ﷻ ومعرفته، واللجوء إليه، والخوف منه، والتعبد له، والاستسلام لشرعه.

تدبر ما أنعم الله ﷻ به عليهم من هذه الرحمة الخاصة، الرحمة بالإسلام، الرحمة بالدين، أتم عليهم النعمة، ورحمهم رحمة كانوا قبلها في ضلال مبين، معذبين يحيون حياة فيها من النكد والشقاء والتعب ما يكون سببًا في أنواع الآلام والمحن، ثم قد مَنَّ الله عليهم ببعثة رسله الكرام، وتزكية أنفسهم بما ربوهم به، فشهد من ذلك رحمة واسعة، وإذا قلت ربِّ ارحمني. لم تقصد فقط أن يزيل ألمك إن كنت متألمًا، أو جوعك إن كنت جائعًا، أو عطشك إن كنت عطشان، ولم تقصد فقط أن يفرج كربك إذا كنت مكروبًا، وأن يقضيَ عنك دينك إذا كنت مدينًا مهمومًا مغمومًا، إنما تقصد في المقام الأول أن يأخذ بقلبك إليه، وأن يأخذ بناصيتك إليه، حتى تعرفه وتحبه وتلجأ إليه وتعظمه وتعبده، فأنت بذلك تُرحم في الدنيا والآخرة أوسع الرحمات، رغم ما يكون عندك من الألم.

والـذي يجسد لـك هـذا الأمـر ويجعلـه مـاثلاً في قلبـك حيًّا ظـاهرًا ؛ تستحـضره وتـرى آثـاره مواقـف الأنبيـاء صـلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

هذه المواقف تغير من سلوكنا إذا تـدبرناها ، وإذا تأسينا بمـا فيها ، وإذا ما وقفنا مع ما قص الله ﷻ علينا مـن هـذه المواقـف الرائعة ، فنحاول تطبيقه على واقعنا.

ومـن المواقـف الـتي تهـز الإنـسان - أيّ إنـسان - والمـؤمن بصفة خاصة موقف يعقـوب عليه السلام في الـشكوى إلى الله والنـاس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا في إدراك مـا تـضمنته هـذه المواقـف مـن معانٍ إيمانية ، فمن الناس من يمر عليها دون أن يفقه منها شيئًا ، أو يأخذها كقصة يتسلى بها.

فهذه المواقف تهـز وجـدان المؤمن ، وتـوقظ في قلبـه معـاني من معاني الإيمان ، خصوصًا عندما يجد مـا يقاربهـا في حياتـه ، من هذه المواقـف الـتي نتناولهـا كمـا وردت في كتـاب الله ﷻ - المعجزة الخالدة - الـذي تـضمنت كـل آيـة مـن آياتـه أنواعًـا مـن الإعجاز وأنواعًا من التربيـة الإيمانيـة ، وتوجيـه قلـوب المـؤمنين إلى معاملة سامية تبهر الإنسان ، ولـو أنـصف كـل واحـد لبـادر

إلى القسم المؤكد أن هذا الكلام كلام الله لا يمكن أن يكون كلام البشر.

نتناول موقف يعقوب عليه السلام حين جاءه خبر قاسٍ شديد، حين جاءه خبر ابنه الثاني، أنه أخذ رقيقًا، وأنه قد سَرَق، وهذه أشد، فهو يعلم عنه أنه لا يمكن أن يكون كذلك، ثم بعد ذلك أنه قد أصبح عبدًا ولن يعود إليه ثانية، فقد أخذه عزيز مصر أسيرًا لديه، بعد أن أقر إخوته بأن الشريعة عندهم أن من سرق شيئًا فهو جزاؤه، والتزموا له بذلك، وما يظنون أن أحدًا منهم يسرق، خاصة بنيامين الابن الحبيب الثاني إلى يعقوب عليه السلام، الذي كان يسلي به نفسه عن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، أكرم الناس كما جاء عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ**» رواه البخاري.

فكان يسلي نفسه به، فإذا به يأتيه خبر شديد، كيف يمر عليه وكيف يصدقه وهو لابد أن يكذّب؟ ﴿ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ

حَـٰفِظِينَ ﴾ (يوسف/٨١) ما كنا نعلم ذلك حتى لا نلتزم بأنه يكون رقيقًا.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ (يوسف/٨٢) ومن أين ليعقوب عليه السلام أن يسأل بعد الكبر، فهل سوف يذهب إلى مصر ليتحقق من صدق بنيه، هم يعلمون أنه لا يفعل ذلك ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ (يوسف/٨٢) وهذه أقرب ليعلم صدقهم، لكن الأمر كان أبعد من أن تكون هناك محاولة للتجربة.

وليس فقط أنه فَقَدَ ابنه الثاني، بل والثالث لم يرجع حيث قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (يوسف/٨٠).

فتجدد عنده الحزن القديم الدفين والآلام، والعجيب أن يصيب يعقوب عليه السلام حزن وهمّ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وهو كريم على الله عز وجل، وله من المنازل العالية والفضائل السامية ما يرفعه إلى أعلى المقامات، مقامات الأنبياء والرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لكن يقدر الله عز وجل له من الحزن والألم ما يجعلك في أي

موقف من مواقف حياتك إذا وجدت ألمًا وحزنًا فقارنته بما أصابه يتضاءل أمرك ويتضاءل حزنك بالنسبة إلى ما أصاب يعقوب.

الله ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يقدّر كل هذا الألم وكل هذا الحزن على ولي من أوليائه، ونبي من أنبيائه، وحبيب ممن يحبهم، يقدّر عليه ذلك؟ نعم بحكمته وحمده، هو ﷻ له الملك، وهو ﷻ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، يستخرج من العبد المؤمن أنواع العبودية في المواقف المختلفة وأنواع التعرف على الله ﷻ وعلى صفات الله، وعلمه وحكمته ويعلم كيف سنته ﷻ وفي خلقه، ويتجدد له ذلك عندما تصيب الواحد منا الآلام والمحن، وهي كثيرة لمن اتسع قلبه بالرحمة، فإن من يتدبر أحوال المسلمين في المشارق والمغارب، الدينية والدنيوية وفي قلبه رحمة فلابد أن يحزن ولابد أن يكون عنده هم وبث، والآلام كثيرة، وقلب المؤمن يتألم بألم الآخرين، لأن في قلبه رحمة، كما بكى النبي ﷺ عندما دخل على ابنته وصبيها يحتضر، فعن أُسَامَةُ ابْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَائْتِنَا. فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلاَمَ وَيَقُولُ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**».

فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ - قَالَ حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ - كَأَنَّهَا شَنٌّ. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» رواه البخاري.

بكى النبي ﷺ رحمة بهذا المتألم، رغم علمه بحكمة الله وأنه هو عز وجل الذي يقبض الأرواح، ويقدر ذلك.

والله عز وجل جعل في قلب نبيه ﷺ من الرحمة ما جعله يرحم الفرخ الصغير وأمه - أم الطائر - التي كانت تبحث عن فرخها، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**». وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: «**مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ**». قُلْنَا نَحْنُ. قَالَ: «**إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ**» رواه أبو داود.

ويزور قبر أمه ﷺ ويستأذن ربه قبل أن يزورها فيأذن له، ويطمع أن يستغفر لها فلم يأذن له ربه ﷻ لأنها ماتت على الشرك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**» رواه مسلم.

الله ﷻ قدر هذه الآلام وهو ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ليستخرج من قلوب أنبيائه وأوليائه أنواع العبودية، ومنها رحمة الخلق، فيقدر ﷻ الآلام لكي تستيقظ هذه المعاني في القلوب.

وأنت لو تأملت الفراق الذي حدث ليعقوب ﷺ لابنه يوسف ﷺ الذي كان غيابه ساعاتٍ معدودةً يحزنه، فعندما قالوا: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ (يوسف/١٢، ١٣).

فمجرد غيابه للعب فقط - وهو يعرف أنه يلعب - يحزنه ﷺ، لأن النظر بلا شك إليه كان يُذهل الكافرين عن شعورهم من جمال الوجه، فيكف بمن عَلِمَ - فوق جمال

الوجه - اجتباء الله واصطفاءه له، وعلم داخل نفسه الطيبة الكريمة، وعلم صفاته الرائعة الكريمة، فكيف إذا كان المحبُ أباه الذي هو من صلبه وتكوّن منه، وخلقه الله منه؟ وهو الذي رباه، وكيف وقد أُخذ منه صغيرًا؟ والواحد منا إذا غاب عن أولاده قليلًا وتصور أنه أصابهم مكروه؛ ربما ما استطاع أن يستمتع بطعام أو شراب أو نوم، مع أن الأولاد إذا وجدوا شوَّشوا عليه حياته، بالمشغابة والتعب والمخالفة، فيوسف ﷺ جمال في الظاهر وجمال في الباطن، ومعدٌّ للتكريم عند الله ﷻ، ومعد لوراثة النبوة، وأبوه يعلم ذلك.

ثم يغيب عنه كل هذه المدة ويؤخذ عنه، ويقال ابنك أكله الذئب فيصبر يعقوب ﷺ، ثم بعد سنين طويلة وقد كبر ابنه الثاني الذي يتسلى به عنه - وهو ليس مثله وليس مكافئًا له - يقولون: ذهب رقيقًا ولن يعود، والثالث أكثرهم رفقًا بالنسبة إلى الباقين، لأنه هو الذي قال: ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ (يوسف/٨٠) فيشعر بالتفريط، وهو أول واحد من أبناء يعقوب يعترف بالتفريط، كان هذا الذي قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ (يوسف/٨٠)

فكان هذا الابن أكثرهم رفقًا، وينتظر الإذن من أبيه، فهو مهذب بالنسبة للآخرين، وقارن بين هذه الكلمة: ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ (يوسف/٨٠) وبين من يقولون له في أكثر الأوقات شدة: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يوسف/٩٥) تشعر بمدى الألم والمصيبة التي أصابت يعقوب عليه السلام، فتنظر أولاً لماذا قدر الله ذلك؟ لأنك سوف ترى أَذًى كَثِيرًا في حياتك كما ذكرنا، فمن لم يتسع قلبه للتألم بآلام المسلمين فما أشد قسوته وجموده وحرمانه.

من لم يتألم بآلام المسلمين الدينية والدنيوية، من لم يرَ آثار المحنة على العلم الإسلامي كله: في داخل أسرته وفي مجتمعه من حوله وبلده والمسلمين في كل مكان، والدماء التي تسفك، والأعراض التي تنتهك، والحرمات التي تضيع، والمعاصي التي ترتكب، والكفر والرياء الذي ينتشر، والاختلاف والافتراق، وتباعد القلوب والتنازع والشقاق فما أشد قسوته، والآلام كثيرة بلا شك، ونحمد الله على هذه الآلام.

وإذا نظرنا إلى مواقف الأنبياء المنيرة المضيئة الرائعة، فهذا موقف يعقوب عليه السلام حين يأتيه ألم مضاعف ويزداد، قال ﷻ عنه: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف/٨٣، ٨٤) مصيبة أخرى أنه فقد بصره الذي كان يتمنى أن يرى به يوسف عليه السلام ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف/٨٥، ٨٦).

وها هي الجملة التي نريد أن نسلط شيئًا من الضوء حولها، وهي شكوى البث والحزن إلى الله ﷻ لنستفيد في واقعنا، وإليك شيئًا من فوائد هذه الآيات، ثم نذكر تعليقًا عليها: كيف كان وقع الخبر على يعقوب عليه السلام؟

ضاع ابنه الثاني الحبيب إلى نفسه وغاب الثالث في انتظاره، فكيف كان رد فعله على هذه المصيبة الشديدة عليه السلام، وتخيل إنسانًا بمثل هذه المثابة تأتيه أخبار بمثل هذه الشدة

والقسوة، ثم كيف يكون ابنه الحبيب المربى على عينه، الذي صفاته وسجاياه الطيبة شبيهة بيوسف الكريم عليه السلام، كيف يكون قد سرق؟ أمر لا يقبل ولا يصدق.

فكان من الطبيعي أن يتهم إخوته الذين سبق منهم الكذب والخيانة، ومضى منهم الحسد والضغينة، أن نفوسهم المريضة قد سولت وزينت لهم أمرًا بأخيهم الثاني، فكانت كلمتهم هذه المرة ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (يوسف/٨٢) شبيهة بكلمتهم أول مرة ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف/١٧).

كما كان عهدهم في هذه المرة ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (يوسف/٦٣). كعهدهم أول مرة كذلك ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (يوسف/١٢). فكان جوابه عليهم مثلما قال لهم أول مرة ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف/١٨).

قال ابن كثير رحمه الله:

قال بعض الناس لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول؛ سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف/١٨)اهـ.

والذي يظهر - والله أعلم - أن يعقوب ما قصد فعلهم الأول حتى يتكلف تصحيح قوله ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ بل كان هذا ظنًا من يعقوب عليه السلام أنهم صنعوا مكرًا لأخيهم بنيامين، ولا مانع من تجويز الخطأ في الظن على الأنبياء، وهم لا يُقرون على ذلك، فإذا كان الخطأ في الاجتهاد في الأحكام الشرعية جائزًا وواقعًا، ولكن كما ذكرنا لا يُقرون عليه؛ فَلَأَن يكون جائزًا وواقعًا فيما لا يترتب عليه حكم أولى وأحرى، وقد اجتهد النبي ﷺ في شأن الأعمى ونزل عتابه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس/١، ٢)، واجتهد في أسارى بدر ونزل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنفال/٦٧).

واجتهد في قبول عذر المنافقين في غزوة تبوك وأنزل الله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة/٤٣)، وبين الله تعالى عفوه في هذه الاجتهادات، وقد وقع منه ﷺ من شأن النخل ما هو معلوم، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِي ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**».

قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «**مَا لِنَخْلِكُمْ**». قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**» صحيح مسلم.

وقال ﷻ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء/٧٨، ٧٩).

وهذا كله دليل على جواز وقوع الخطأ في الاجتهاد من الأنبياء وأنهم ينبهون عليه، فهذا الذي وقع من يعقوب من هذا الباب، والله أعلم.

وهو معذور عليه السلام لما وقع منهم بسابق فعلتهم بيوسف ﷺ، ومع ظنه ذلك عليه السلام كان رد فعله أجمل رد فعل وأحسنه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، فهل تستطيع أن تعامل من أساء إليك أو من تظن أنه أساء إليك هذه الإساءة بمثل هذا أن تقول: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ؟ قارن بين موقفك مع من خاصمته في يوم من الأيام أو مع من آذاك، وهل وصل أذاه لك إلى مثل ما وصل إليه أذى أبناء يعقوب ليعقوب في يوسف عليه السلام؟

ثم هو قد توقع أن يكونوا قد مكروا مكرًا بأخيهم الثاني،

أو ظن ذلك فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ورجح ذلك في الجملة، ومع ذلك قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي الذي لا شكوى فيه إلى الخلق.

ما أعظم صفات الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - مصيبة هائلة وخطب جسيم، نكأ الجرح القديم والحزن الدفين، ومع ذلك فلا خطاب إلا بالصبر الجميل، بل ولما زاد الكرب وعظم المصاب واشتد البلاء رجا الفرج من الرب العليم الحكيم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (يوسف/٨٣)، حقًا مواقف تستخرج النور عندما يشتد الكرب، تعبّدْ بالرجاء، عندما يزداد الألم اطلب اليسر وارجُ من الله بعلمه وحكمته أن يفرج عنك، وذلك لأنها سنته في الخلق ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح/٥، ٦).

وكما قال النبي ﷺ لابن عباس: «...**وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**» رواه أحمد.

فهذه عبادة الرجاء مع عبادة الشكوى إلى الله ﷻ

واستحضار معاني الأسماء والصفات، كالعلم والحكمة، فبعلمه وحكمته قدر هذا الألم وقدر هذا الابتلاء ليستخرج من عبده ونبيه ما يحب، هكذا يفعل ﷻ بأوليائه، يقدّر عليهم أنواع الابتلاءات والمحن ليرى منهم عباداتهم، وليرى صبرهم الجميل الذي لا يشتكون فيه إلى الناس ولا يجزعون، فالصبر هو حبس النفس عن الجزع، فلا يقول: لماذا فعل الله بي ذلك أو: أنا في ضيق من هذا الأمر يا رب، بمعنى أنه لا يحتمل ولا يرى فيه حكمة ولا مصلحة، لا، فصبر جميل أي: ليس فيه جزع، وصبر ليس فيه شكوى إلى الناس، ولكن يشكو الناس إلى الله.

وهذه الآية بلا شك لها شأن عند الصحابة ﷺ وخصوصًا عند عمر - كما سيأتي - والصبر الجميل ليس فيه تصريح بثقل المصيبة، والصبر كله كذلك، لكن الصبر الجميل خصوصًا لا يشتكي فيه إلى الخلق على الإطلاق، وإنما يشكو بثه وحزنه إلى الله ﷻ، وبه يعود إلى يوسف وبنيامين والابن الثالث كبيرهم يهوذا كما ذُكِر، وعسى من الله واجبة، وهي من أنبياء الله خبر من عند الله ﷻ، فإن شدة البلاء علامة على

قرب الفرج، لأن الأمور يدبرها العليم بأحوال عباده، الحكيم فيما يقدّره، فليست الأمور تجري بغير حكمة وليست من صنع البشر.

إن المقادير يقدرها العليم الحكيم بعلمه وحكمته وإحكامه لكل شيء صنعه، لا يضع الأشياء إلا في موضعها، ولا يشرع الشرائع ولا يقدر المقادير إلا بالحكمة والمصالح التي هي أحب إليه لو لم يقدر المكروه، فيخرج الأمر عن هذه الأمور المحبوبة التي ترتبت على المكروه، فكم في هذا الألم الذي قدره الله على يعقوب عليه السلام من حكمة باهرة، ومصلحة عظيمة، وعبادة له تعالى.

عدد سيدنا يعقوب أنواعًا من العبودية: عبادة الصبر، عبادة الرجاء، عبادة شهود آثار العلم والحكمة، الابتعاد عن الجاهلين، والتولي عنهم، والشكوى إلى الله عز وجل، وتذكر صفات الرحمة، وتذكر صفات القدرة، وصفات الحكمة ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف/٨٦)، ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف/٩٦).

ولو سئل أحد: هل الله عليم حكيم؟ لأقر أن الله عليم

حكيم، ولكن الأمر ليس بالمعرفة وحدها، ولكن بالشهود والحضور في القلب، وهذا هو المفيد في طريقة القرآن في عرض هذه المواقف، حتى نتعظ بها، فكم في هذا الألم الذي قدره الله على يعقوب ﷺ من الحكم البالغة والمصالح العظيمة وعبادته ﷺ، وقدوة وأسوة، وصبر وحلم، ورجاء وحسن ظن بالله، ومعرفة بأسمائه وصفاته، وشهود آثارها في هذا الكون وكم ارتفعت درجات يعقوب ﷺ عند الله، وكم من ثناء حسن ولسان صدق في الآخرين بسبب موقفه الرائع: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(يوسف/١٨)

فاللهم لك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت، فانظر إلى تعامل يعقوب ﷺ مع هذه المواقف:

موقف اتهام ابنه بالسرقة لم يغضب ولكن قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ شيء رائع بالفعل، ارتفع به درجات، لذلك هو يحمد ربه عليه، ونحن بعدما شهدنا نهاية القصة علمنا أن هذا الألم كان في مصلحة يعقوب ﷺ، فارتفعت درجاته وصار قدوة لكل مربٍّ وقدوة لكل مؤمن ومؤمنة في الحقيقة، لأنه

كيف واجه أبناءه حينما ارتكبوا هذه الجريمة في ظنه، وهم مرتكبون للجرائم قبل ذلك، من خيانة وكذب وغدر.

فقوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف/٨٤)، يدل على أنه أعرض عن أبنائه، وهذا الإعراض دواء وعلاج لهذا الداء، وهو عظيم الفائدة في أن يتنحى الإنسان عمن يسبب له ضيقًا، وعمن يفكر كثيرًا في تقصيره ناحيته، أعرض يعقوب عليه السلام عنهم وتولى عنهم، وقال: ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ تذكر حزنه القديم على يوسف عليه السلام، فقد جدد له فَقْدُ ابنِه حُزنَ فقْدِ يوسف، وهذا الحزن موجود في قلبه، ولكن الصبر الجميل منع من ظهوره أمامهم، وقد يتعجب المرء لأن فقد بنيامين كان يناسبه أن يقول: يا أسفا على بنيامين، ولكنه يقول: ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ سبحان الله هذه نقطة عجيبة الشأن، فلا يشك أحد أن يوسف أحب إليه، ثم إن هذا الموقف ذكّره بقيمة يوسف عليه السلام وقدره وصفاته الجميلة، لما وجدهم أحد عشر رجلًا ولم يقدروا على أن يحفظوا واحدًا، ولا يقدرون أن يرجعوا سالمين من هذه الرحلة، وكان منهم بنيامين، فما قدرهم بالنسبة إلى قدر يوسف عليه السلام؟

إن هذه البلايا إنما يقوم لها يوسف عليه السلام مقامهم مجتمعين، بل خيرًا منهم بلا شك، فقد قام سيدنا يوسف أمة كاملة وما حولها من الشعوب في فترة المحنة في مصر، إخوته أحد عشر رجلًا ولم يقدروا أن يحفظوا واحدًا، وحفظ الله بيوسف الأرض التي حولهم إلى أن رجعوا من أرض كنعان إلى أرض مصر، لتدبير يوسف عليه السلام ولحكمته التي يعلّمه الله إياها، بعد أن كان هذا الأمر مُهلكًا مدمرًا ويكاد يموت كل من حولهم، وهو خير منهم بلا شك، ووالله لقد كان، فيوسف هو الذي فرج الله به كرب يعقوب في بنيه، ووالله لو تعرض إنسان لمثل هذا لكان من أشد الكرب، فلو كان غريب يفعل فيه هذه الأفعال ما تحمل، فكيف بأبنائه أنهم هم الذين يفعلون به ذلك، فضيعوا أخاهم الأول والثاني والثالث، لقد كان يوسف هو الذي يفرج الله به كرب يعقوب عليه السلام في بنيه، ولكنه يفتقده حينما قال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

إن فقْد الرجال، وغياب الكرماء، وانعدام الثقات هو الذي يؤلم رعاة البشر الأنبياء وأتباعهم.

فلم يجد يعقوب أحدًا في المحنة إلا يوسف عليه السلام يقوم لها

لذا قال: ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وإن هذا المعنى هو الذي جعل عمر ﷺ عندما صلى بالناس فقرأ هذه السورة حتى إذا وصل إلى قوله تعالى عن يعقوب في هذا الموضع ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (يوسف/٨٦) سمع نحيبه ونشيجه من آخر المسجد، فعمر ﷺ - والله أعلم - فتح الله عليه الفتوحات، فما الذي جعله يبكي هذا البكاء الشديد حتى يسمع من آخر المسجد حينما يمر على سورة يوسف وخاصةً هذا الموقف ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؟ ونحن نعلم أنه هو الذي يقول: «**اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة**»، وهو الذي يقول لجلسائه: «**تمنوا**» فيتمنى أحدهم مالًا ينفقه في سبيل الله، ويتمنى الآخر خيلًا يجاهد عليها في سبيل الله، وغير ذلك، فقال: «**لكني أتمنى دارًا مثل هذه فيها رجال مثل أبي عبيدة بن الجراح أستعملهم في أمور المسلمين**» لم ير أحدًا مثل أبي عبيدة، لذلك يشتكي إلى الله ﷻ أو كما قال ﷺ.

إنه والله لهمّ عظيم وشدة شديدة أن يُفقد الرجال، وإذا كان في زمان عمر والصحابة حوله متوفرون ﷺ يشكو إلى الله ﷻ، بل أعظم من ذلك إذا كان رسول الله ﷺ هو الذي يقول: «**النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لاَ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**» رواه مسلم.

فالرسول ﷺ وحوله خير من صحب الأنبياء على الإطلاق يقول ذلك، والراحلة هي التي تسافر السفر الطويل وتحمل الأعباء هي أقل من واحد بالمائة في الإبل، كذلك من يتحمل أعباء الأمة أقل من واحد بالمائة في الناس، وهذا في زمن الصحابة، وعمر يشتكي رجالًا، ويبكي عند سماع هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف/٨٤-٨٦) فكيف بأزمنة انعدمت فيها الثقات؟ وما بالنا بزماننا؟ فإذا كان عمر يبكي ويشكو إلى الله فماذا نصنع فيما عندنا؟

والمصيبة الأعظم أن كثيرًا منا لا يفكر في المسلمين أو يبحث عنهم، فلا تجد أحدًا ينظر ويبحث عن أحد إلا من رحم الله.

انظر إلى عمر رضي الله عنه الذي تضرب به الأمثلة في كل مكان، ورغم ذلك لم يجد أناسًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، لذلك يشكو إلى الله، فماذا نشكو إلى الله؟ إما أن الأمر ليس في

بالنـا، مـن صـلاح المسلمين، وعـلاج أمراضـهم، وكـشف كرباتهم.

اللهـم إليك المشتكى، فيا أسفـا على أصحـاب رسـول الله ﷺ وأمثالهم وأشباههم وأتباعهم.

مـاذا نـصنع وكيـف نهنأ بـالعيش والمسلمون قـد تـضاعف عـددهم بـآلاف الملايـين، وقـد تـضاعفت محنـتهم وبلاؤهـم وكربهم، وعظم الجهل فيهم وقل العلم، وتسلط عليهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيه، أما يحق لنـا أن نبكي على أمتنا وأبنائنا؟ ونشتكي إلى الله؟

سيدنا يعقوب عليه السلام لما بكى وابيضت عيناه من الحزن قال: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّى وَحُزۡنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إذًا هنـاك لحظـات لابـد أن تـشكو فيهـا إلى الله، أن تبكـي لله ﷻ شـاكيًا كـرب نفـسك وأهلك وأولادك وأمتك وما تشعر به إلى الله، إن يعقوب عليه السلام لما ضيعوا أخاهم الثاني تذكر أمانة يوسف عليه السلام وكرمه وحلمه وحسن صفاته، فتـأثر عليه السلام فابيـضت عينـاه مـن الحـزن وهـو كظيم، شكوى إلى الله ﷻ سبحانه وحزنًا علـى عـدم الراعـي الشفيق الرفيق، مع أنه يعلم أنـه عـن قريـب يلقـاه، وأن غيابه مؤقت، لأنه يعلـم مـن الله حكمتـه وحمـده ويعلـم مـن وعـده

الصادق الذي لا يخلف مالا يعلمون، يعلم من جوده ﷻ ويعلم من رحمته وفضله مالا يعلمون، ويعلم من عزته ﷻ، وأنه الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ويعلم أنه ﷻ حسْبُ من توكل عليه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، ما يجعله يوقن بقرب لقاء يوسف عليه السلام، فهل نبكي على حالنا وحال أمتنا ونشكو إلى الله همنا وحزننا وبثنا عسى أن يكون في ذلك قرب فرجنا؟ وإن كنا لا ندري ما يصنع الله بنا كأفراد أو كجيل، لكننا على يقين من أن الأمة لا تموت، وأن الحق لابد له من ظهور، وأنه لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة، فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا منهم، وأن يثبتنا.

وقول الله ﷻ: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف/٨٤)، أي: ساكت كئيب لا يشكو أمره وما يجده في صدره إلى مخلوق، والبث: أي الهم والغم على المستقبل والحاضر والحزن على الماضي وليس بثه وحزنه لفوت دنيا أو لمجرد قد ابن، بل قلقًا على مستقبل أمة وغياب راعٍ شفيق يقوم مقام أمة، وهو مع ذلك لا ييأس من روح الله، ويبث روح الرجاء التي تبدد ظلمات اليأس في بنيه الذين

يشفقون عليه من الضعف ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ (يوسف/٨٥) أي: ضعيف القوة أو يكون من الهالكين، أي ربما تموت من شدة الحزن والبكاء.

وهذه كانت بداية تغير في صفاتهم، فلم يكن عندهم مثل هذه الرحمة قبل ذلك، لم يكونوا يرحمون أباهم، ولو كانوا رحموه لما أخذوا منه ابنه، ولما تركوه كل هذه المدة، ولكنهم بدؤوا يشفقون عليه، وهذه بداية تغير نتيجة الانكسار الشديد الذي حصل لهم، وهذا من رحمة الله ﷻ، إن هذا الانكسار الذي حدث كان رحمة، فتجد تغيرًا منهم بدأ بقول كبيرهم ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾.

هذه الكسرة التي حدثت كانت خيرًا، وكانت مصلحة، فبدؤوا يقولون: فرطنا في يوسف، وبدؤوا يتجهون إلى التعبد بالأسماء والصفات، لأول مرة يذكرون اسمًا من أسماء الله الحسنى هذه المرة أما قبل فلا ولا مرة، أول مرة يقول قائلهم: ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يوسف/٨٠).

لأن الإنسان إذا التفت إلى آثار الأسماء والصفات، وعرف هذه الأسماء والصفات يبدأ حاله يتغير، فلا يكون

ضالًا لا يعرف ربه ﷻ ولا يرى آثار أسمائه وصفاته في الكون المشهود فضلًا عن آيات الله المقروءة.

ثم يقول لهم يعقوب واصفًا حقيقة بكائه وحزنه، يعني تظنون أني سأموت من الضيق؟ ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني يشكو حاله إلى الله، يبكي لله حتى تبيض عيناه شاكيًا لله ربه سبحانه.

قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (يوسف/٨٦، ٨٧) إن عبادة الشكوى إلى الله عبادة عظيمة ومهمة، تزيل كل هم، وتزيل كل حزن وتملأ القلب فرحًا وسرورًا، وتجلب للقلب أنواعًا من الطمأنينة والراحة والسرور والسعادة مما لا يمكن أن تكون في عبادة غيرها، إنها عبادة استعملها نوح ﷺ حينما اشتكى إلى الله قومه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (نوح/٥، ٦)، فالداعي إلى الله عندما يجد انصرافًا عن الدعوة، وضعف الآثار لهذه الدعوة يتذكر نوحًا ﷺ، فهو لم يقصر في الدعوة ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح/٧).

وأداها محمد ﷺ في الشكوى إلى الله حين قال: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت رب، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدوٍ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي سخطك، أو يحل عليَّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**» رغم ضعف إسناده لكن شهرته تغني عن الإسناد، والمتن رائع عظيم القدر، إنها عبادة الشكوى إلى الله، أوقفت أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ حين سمع نشيجه عند قراءة هذه الآية، واستوقفته حين كان مع أصحابه فاستوقفته امرأة عجوز فترك الناس وقام لها فأطال القيام حتى قضى حاجتها وانصرفت.

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبسْت رجالات قريش على هذه العجوز؟

قال: «**ويحك، أتدري من هذه**»؟ قال: لا!

قـال : «هـذه امـرأة سمـع الله شـكواها مـن فـوق سـبع **سمَـٰوَات، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليـل مـا انـصرفت عنهـا حتـى تقـضي حاجتهـا إلا أن تحـضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»** روي مـن طريق آخر وإن كان منقطعًا.

فتأمل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة/١).

قـد مـرت علـى كـثير ولم ينتبهـوا لهـا ، لكـن انظـر موقـف الصحابة منها ، استوقفت عائشة رضي الله عنها فقالـت : «**الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ...**» رواه البخاري.

واستوقفت عمر رضي الله عنه : «سمـع الله شـكواها مـن فـوق سـبع سماوات» قـضايا العبـادة وقـضايا الأسمـاء والـصفات ، إن الله يسمع الشكوى ، ويزيل ما يشتكي منه عبـده المؤمن ، ويقـضي حاجته تستوقف المؤمنين ، فهذه عبادات عظيمـة ، ليست لمجـرد أن نعرف أن حكم الظهار عتق رقبة أو صيام شهرين أو إطعـام ستين مسكينًا من غير أن نحقـق العبوديـات القلبيـة الموجـودة في هذه الآيات الكثيرة.

عبادة الشكوى إلى الله ﷻ من أجلها قدر الله المحنة والابتلاء، بل والمعصية والكفر، فالذي كفر هو الذي يؤذي المسلمين حتى يسمع الله ﷻ تضرع عباده، وقد يؤخر دعوتهم وقد أجابها، ولكن يؤخرها لأن الله قال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر/٦٠).

ويؤخر لأنه يحب أن يسمع تضرعهم وشكواهم إليه ﷻ ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ (الأنعام/٤٣)، فهل وجدت آخي المبتلى مفتاح هذا الكنز الذي معك، وربما لا تدري، فهلا فتحت القفل بالمفتاح وأعددت القلب ليفاض عليه من الرحمة ويسبغ عليه من النعمة.

اللهم إننا نشكو إليك بث المسلمين، ونؤمن بك، ونتوكل عليك، نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، اللهم فرج كرب المكروبين، وفك الأسر عن المأسورين، وارفع الهم عن المهمومين، اللهم استر عورات المسلمين، وآمن روعاتهم، اللهم أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، اللهم ارحم موتاهم، واشف مرضاهم، وجرحاهم، وخفف آلامهم، وارحم أيتامهم وأراملهم، ورجالهم، ونساءهم، في كل مكان يا رب العالمين.

وَآَخِرُ دَعْوَانا أَنِ الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ